قدوم محمد علي الى الحجاز ومعاركه

محمد علي في مكة :

كتب السلطان إلى محمد علي يذكّره بوعد كان قطعه.. أن يذهب إلى الحجاز ويتولى بنفسه قيادة الجيوش وإدارة المعارك ضد الوهابيين ، فلم يسَع محمد علي إلا الاستجابة لرغبة السلطان، فالأحوال في مصر الآن مستقرة وقد بطلت حجة كان يرددها للاعتذار عن السفر ، وهي : قيام الفتن والدسائس في بلاده ..

والحقيقة هي أن محمد علي أصبح ، هو نفسه ، شديد الرغبة في السفر إلى الحجاز ، لأسباب كثيرة غير إرضاء السلطان التركي ، ولعل في مقدمة تلك الأسباب : ان وجوده في الحجاز يريق عليه ألق الفتح وعظمته ويزيد من سمعته وهيبته في العالم الإسلامي، إذ يربط بين اسمه وبين فخر الانتصارات والفتوحات، بدلاً من أن يتوزع هذا الشرف بين قواد عديدين، أو ينسب إلى السلطان نفسه.

أضف إلى ذلك ان وجود محمد علي بين رجاله المحاربين يقوّي عزيمتهم ويلهب حماستهم فيحققون مزيداً من الانتصارات ، خصوصاً بعد هزيمة « تربة » التي جعلت الوهابيين ينشطون في هجماتهم على المصريين حتى قيل انهم يفكرون في استرجاع المدينة ومكة وكل ما فقدوه، ومعنى ذلك – إذا تحقق كله أو بعضه – انهيار حكم محمد علي في مصر .. نتيجة إخفاقه في الحجاز ..

وهكذا سافر محمد علي في شهر ذي القعدة عام ١٢٨٨ هـ . إلى الحجاز ..

أيامه الاولى .. في مكة :

يقول بركهارت ان محمد علي قضى أيامه الاولى في مكة بالعبادة ومجالسة العلماء ، وكان يتظاهر بالتقوى والصلاح ، وينفق الكثير من الصدقات، ويكرم العلماء والشيوخ ، ويتعهد إصلاح الحرم المكي وتزيينه ، وكان يرى في الحرم المكي كثيراً ..

ويروي بركهارت عن محمد علي هذه القصة الطريفة :

جاء يوماً بدوي وقال له ببراءة وبساطة :

– لقد تركت ديانة المسلمين « يعني الوهابيين » وانتقلت إلى ديانة المشركين « يعني ديانة محمد علي وجماعته » ..

فلما تُرجم هذا الكلام لمحمد علي ، تظاهر بالضحك ، وهو يكتم غضباً ، ثم قال لترجمانه : قل له : آمل انك ستبقى دائماً مشركاً ..

التموين :

رأى محمد علي الضيق الذي يعانيه أهل مكة والطائف بسبب انقطاع الوارد من البحر ، فاستأجر من سلطان مسقط عشرين مركباً ، أضافها إلى ما عنده من المراكب ، وبذلك استطاع ضمان الميرة والتموين للأهالي وللجيش .

هموم محمد علي :

ويمكننا القول ان ثلاثة أمور كانت تشغل محمد علي وتستأثر باهتمامه، وهي:

١ – تقوية جيشه ، معنى ومادة .

٢ – تحقيق انتصارات سريعة في تربة والقنفذة ، لمنع خصومه من الاستفادة منها ومما وراءهما .

٣ – التخلص من الشريف غالب .

احصاء خسائر العسكر السابقة ، ومقادير الامدادات :

أحصى محمد علي تكاليف حملته حتى يوم وصوله إلى مكة فوجدها قد بلغت خمسة وثلاثين مليون فرنك .

وأحصى خسائره في الجند فوجد أن ثمانية آلاف منهم قد ماتوا ، إما في ساحات القتال أو بالأمراض وغيرها ..

ووجد أنه فقد خمسة وعشرين ألف بعير ...

هذه الخسائر الجسيمة هي التي جعلت طوسون يلتزم ، في الفترة التي سبقت وصول أبيه إلى مكة ، خطة الدفاع ، ولكن هذه الخسائر لم تفتّ في عضد محمد علي .. وإنما جعلته يجتهد في تعويضها والاستزادة من المقاتلة والذخائر والأموال ..

لما حضر محمد علي إلى الحجاز أحضر معه ألفين من المشاة ، ولكنه استقدم بعد وصوله بقليل ألفين من الفرسان ومعهم ثمانية آلاف فرس وبغل تحمل المؤن.. ثم كتب إلى مصر يطلب سبعة آلاف كيس من النقود .. وسبعة آلاف عسكري (فشرع كتخدا بك – كما يقول الجبرتي – في استكتاب أشخاص من أخلاط العالم ، ما بين مغاربة وصعايدة وفلاحي القرى ، فكان كل من ضاق به الحال في معاشه يذهب ويعرض نفسه ويشتري فرساً وسلاحاً .)

وقد فرض محمد علي لتأمين نفقاته الحربية المتصاعدة ضرائب جديدة، وأمر بمصادرة الملابس وغيرها من التجار في مصر .

عزل الشريف بالحيلة ونفيه :

لما وصل محمد علي من مصر ورسَت سفينته في الميناء أسرع الشريف غالب إلى استقباله على ظهر السفينة ، وعانقه عناقاً طويلاً ، وتعاهد الرجلان على التناصر والتعاون والوفاء ..

ولما أقام محمد علي في مكة كان الشريف غالب يكثر من زيارته والتقرب اليه..

ولكن هذا الود استحال بعد ذلك إلى جفاء فخصام مكبوت ، والسبب الظاهر هو : المال .

محمد علي يحتاج إلى المال لإنفاقه في حروبه والترويج لسياسته .. والشريف غالب بخيل وَشره إلى المال ولا يريد أن يؤخذ من الموارد المالية التي كان يتصرف بها أي شيء ..

كان الشريف غالب يأخذ نصف واردات الجمارك في جدة ، وأحياناً كان يأخذ هـــذه الواردات كلها .. فلما عيَّن محمد علي والياً من قِبَله على جدة ، استولى هذا الوالي على رسوم الجمارك ولم يسمح لوزير الشريف غالب باستيفاء شيء منها ..

ويقول بركهارت ان الشريف شكا أمره إلى محمـــد علي ، فطيَّب خاطره بالكلام .. ولكنه لم يحقق له شيئاً من طلبه ..

ثم طلب محمد علي من الشريف غالب أن يأمر العرب بتسليم العساكر أعداداً من الجمال يحتاجون اليها ، فأظهر الشريف الامتثال لأمره ، ولكنه لم يفعل ، وكأنه بذلك يردّ له « التحية » بمثلها ..

وهكذا تحرجت الأمور بين الرجلين، وأضمر محمد علي في نفسه الخلاص من الشريف غالب وإبداله بواحد آخر من الأشراف ضعيف الشخصية لا يعصي له أمراً.

ويمكن القول ان تفكير محمد علي في الخلاص من الشريف غالب لم يكن جديداً، ولعله كان يفكر في ذلك منذ سنتين، والأسباب التي تحمله على التشكيك في اخلاص الشريف له كثيرة :

منها ان الشريف غالب غير مأمون الوفاء، وقد سبق له التعاون مع الوهابيين وكان ينافق للفريقين ..

ومنها ان الشريف له في مكة أنصار، وله مطامع، وسيحاول الاحتفاظ لنفسه بالزعامة في مكة وجمع العرب حوله.. وطاغية مثل محمد علي لا يتحمل وجود زعيم الى جانبه ينافسه ، وقد يصبح خصماً له ..

ومنها مسألة المال .. فإلى جانب رسوم الجمارك ، كان محمـــد علي يعتقد ان الشريف غالب جمع ثروة هائلة وظفها في الهند ، وان نهمه إلى جمع المال لا يعرف حداً ..

وقد وجدنا في رسالة كتبها محمد علي الى السلطان بعد استيلاء الجنود المصريين على ينبع سنة ١٢٢٦ هـ. ما يثبت تشككه في أمر الشريف ورغبته في عزله، فقد كتب في تلك الرسالة الى السلطان أنه وقف على رسائل مريبة كتبها الشريف

غالب تكشف عن سوء نيته وخيانته .. فأصدر السلطان في ذي الحجة من سنة ١٢٢٦ هـ . « فرماناً » – أي أمراً ملكياً – جاء في مقدمته أن محمد علي أخبر السلطان بأن جيوشه طردت العدو من ميناء ينبع ، وأنه يستأذن السلطان بإبعاد الشريف غالب الى مكان ما ..

لذلك :

(أعطى السلطان محمد علي الحرية بأن يسجن هذا الأمير أو ينفيه الى القاهرة لأنه قام بدسائس في الحجاز .

كما فوضه باختيار خلف له بشرط أن يكون شريفاً متحدراً من بيت النبي ﷺ ، وأن يكون أهلاً للمنصب ..

ويأمر السلطان كذلك بالاستمرار في الحرب حتى تطهر الأماكن المقدسة وجدة من « أهل البدع » [1] .. ويتم النصر عليهم في الحجاز ونجد .

وبذلك يخلد اسم محمد علي ويحفظ له السلطان خدماته) [2] .

رسالة محمد علي الى السلطان :

كتب محمد علي إلى السلطان ، بعد مقامه في مكة وغضبه على الشريف غالب ، يستأذن السلطان في التخلص من الشريف ، فأجابه السلطان في جمادى الاولى سنة ١٢٢٨ بأنه : (أطلق يديه في عمل ما يريده بالشريف غالب ، باستثناء قتله ..) .

الشريف كان يرتب مؤامرة لقتل محمد علي :

ويقول بركهارت ان محمد علي ادّعى ان الشريف غالب كان يريد قتله والتخلص منه .. وهذه الدعوى كاذبة ، ولكن محمد علي حرص على إشاعتها بين الناس ليبرر بها عزله للشريف من غير أن يثير عليه نقمة العرب ، الذين كانوا يتهمونه بقلة الوفاء والغدر بالأصدقاء لو لم يكن له مثل هذه الحجة ..

---

(١) من المضحك حقاً أن يقال عن الذين اشتهروا بمحاربة البدع .. انهم أهل البدع .

(٢) ترجمنا الفرمان عن ترجمة فرنسية في مجموعة « نعوم حايم » .

لقد حاولنا الوصول إلى الرسائل التي كتبها الشريف ووقعت بيد محمد علي لعلنا نجد فيها مـا يثبت ، أو ينفي ، دعوى محمـد علي ، فلم نوفق إلى ذلك ، ولكننا وجدنا حاشية كتبها السلطان على رسالة لمحمد علي يقول فيها: «انهم .. كانوا ينوون محو محمد علي وإزالته ، وأنا أدعو الله ، وهو خير الحافظين ، أن يحفظه » .

كيف أمسك محمد علي بالشريف ثم نفاه ؟

يقول بركهارت ان محمد علي لم يستطع عزل الشريف غالب بالسهولة التي يعزل بهـا أحد رجاله ، لأن للشريف أنصاراً ومكانة وقد مضى عليه في منصبه ثمان وعشرون سنة .. وعند الشريف حرس قوي يتألف من ألف جندي وثمانمائة عبد ، وله قصر حصين يقيم فيه على احدى تلال مكة .. وهكذا كان عزل الشريف أو أسره يهدد بإثارة أزمة وقد يكون سبباً في نشوب حرب .

لذلك لجأ محمد علي الى اسلوب من أساليبه الناجحة التي استعملها للتخلص من خصومه في مصر ، كزعماء المماليك وغيرهم . . وهذا الاسلوب يقوم على استدراج الخصم بالحيلة والمكر للحضور بمفرده الى قصره ، ثم إمساكه وإبعـاده أو قتله .. ثم إبلاغ الجمهور أنـه ارتكب جريمة شنيعة استوجبت سجنه أو قتله ، حماية للبلاد والعباد من الأخطار والشرور والفتن ... الخ .

نفذ محمد علي خطته بدقة وإحكام ، فجعل ابنه طوسون يعود من جدة الى مكة ، وبذلك استدرج الشريف للذهاب اليه وتحيته في قصره .

ولما دخل الشريف قاعة الضيوف ، فاجأه أحد الضباط – ومعه عـدد من الجنود وقد شهروا سيوفهم – قائلا :

– ان السلطان أمر بعزلك وإبعادك .

فقال الشريف : لقد أفنيت عمري في خدمة السلطان ، ولن أخشى مقابلته .

ولكن الضابط أمسك به ، ثم أبعده ، بأمر محمد علي ، الى مصر ، وأرفقوه بابنيه وزوجته وبعض رجاله .

ثم طلب السلطان من محمد علي نفي الشريف غالب الى مدينة « سلانيك » اليونانية ، وكان يحكمها الترك ، فنقلوه اليها وخصصوا له راتباً شهرياً .

ومات الشريف غالب هناك بالطاعون سنة ١٢٣١ هـ.

أما منصب الشرافة ، الذي شغر باعتقال الشريف غالب وعزله ، فقد اختار له محمد علي الشريف يحيى بن سرور بن مساعد ، ابن أخي غالب ، ولكن محمد علي لم يترك له أية سلطة .

رواية ابن بشر :

ويقول ابن بشر في قدوم محمد علي الى مكة وما كان بينه وبين الشريف غالب بن مساعد ما يأتي :

(وفي هـذه السنة ١٢٢٨ – في ذي القعدة ، قدم محمد علي صاحب مصر مكة المشرفة ، بالعساكر العظيمة وقدم معه الحاج المصري ، فلما دخل مكة واستقر به القرار فيها ، سار اليه الشريف غالب للتحية ، فأكرمه محمد علي وعظمه وأعطاه عطاء جزيلا ، وفعل معه بالظاهر فعلا جميلا ، وكان قصده غير ذلك ..

فلما ضبط محمد علي مكة بالعساكر وزاره الشريف على عادته ، أمسكه وقيّده وحبسه ، وأحاط بجميع ما يملك من الأموال والأثاث وغير ذلك مما يعجز عنه الحصر ، وأخرج حرمه وعياله من قصر «اجياد» المعروف في مكة واستولى عليه ، وأمسك كبار بنيه وقيّدهم وحبسهم معه واستعمل في مكة شريفاً يحيى ابن سرور ، أخا غالب ، ونادى بالأمان لأهل البلد ، وادّعى ان هـذا أمر السلطان .

وكان قبضه على غالب وبنيه لعشر بقين من ذي القعدة .

وهرب من مكة أكثر الأشراف وأتباع غالب وسكنوا الجبال ..

ثم إن محمد علي جهز غالب وبنيه عبد الله وحسين إلى مصر ، فلما وصلوه ، أرسل غالب شكاية إلى السلطان وهو محبوس في مصر ، فورد الأمر من السلطان

أن يكون الشريف وأبناؤه في سلانيك ، ويعطى مـــا يلزمه من خراج وغيره ويُردّ عليه شيء من أمواله ..

ويقول ابن بشر أيضاً :

(ثم ان محمد علي أراد أن ينصب الشريف (راجح) ويكون بابا للعرب[1]، فلم يأمنه راجح وهرب منه ونزل على غزو المسلمين من أهل الحجاز عند بلد تربة .

ثم خرج يحيى بن سرور من مكة وأظهر أنه يريد الغزو على البوادي ، ومعه شرذمة على العرب والترك ، فلما قرب « الخبت » هرب بمن معــه من العرب إلى ناحية تهامة وعسير ، خوفاً على نفسه .

ورجع الترك الذين كانوا معه) .

---

(١) هكذا جاءت في ابن بشر : « بابا » للعرب. ولعل كلمة « بابا » تصحيف أو خطأ مطبعي.